رحلة "أبو زيد العُماني" لمحمد بن سيف الرحبي: رحلة أم رواية؟!

د. ناصر بن حمود الحسني
أستاذ الأدب والنقد المساعد
جامعة الشرقية، سلطنة عُمان.

البريد الإلكتروني Email : nasser.alhasani@asu.edu.om

الكلمات المفتاحية: الرحلة، الرواية، الحبكة القصصية، الأجناس الأدبية، تداخل النوع الأدبي.

كيفية اقتباس البحث

الحسني ، ناصر بن حمود، رحلة "أبو زيد العُماني" لمحمد بن سيف الرحبي: رحلة أم رواية؟!،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، كانون الثاني ٢٠٢٥،المجلد:١٥ ،العدد:١ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

The Journey of "Abu Zaid Al-Omani" by Mohammed bin Saif Al-Rahbi: Journey or Novel?!

Dr. Nasser bin Hamoud Al-Hasani
Assistant Professor of Literature and Criticism
Ash-Sharqiyah University, Sultanate of Oman

Keywords : journey, novel, plot, literary genres, literary genre.

How To Cite This Article
Al-Hasani, Nasser bin Hamoud, The Journey of "Abu Zaid Al-Omani" by Mohammed bin Saif Al-Rahbi: Journey or Novel?! Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, January 2025,Volume:15,Issue 1.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract :

The Journey of Abu Zaid Al-Omani by Muhammad bin Saif Al-Rahbi is a novel that combines travel literature and novelistic narration, as it takes the form of an exploratory trip, but at the same time it contains narrative and imaginative elements that make it a novel in the literary sense. The novel revolves around the character of Abu Zaid Al-Omani, who embarks on a journey full of challenges and discoveries in different places. The novel deals with multiple themes related to identity, belonging, and culture, and ranges between narrating real experiences and fictional elements to create a rich reading experience. "The Journey of Abu Zaid Al-Omani" is indeed a novel, but it bears the character of a journey in its narration, which gives it a distinctive flavor that combines exploration and contemplation.

Muhammad bin Saif Al-Rahbi's novel is often considered more than just a "journey," because it contains narrative elements and imaginary events that go beyond simply narrating the facts of a real trip. In his works, Al-Rahbi blends reality and imagination in a way that enables the reader to experience new worlds and think about social and philosophical issues. But it can be said that some of his novels contain a "journey" character, meaning moving or searching for something,

whether on a physical or psychological level, which makes them take on a dual character between the novel and the journey.

الملخص باللغة العربية:

إن "رحلة أبو زيد العماني" للكاتب محمد بن سيف الرحبي رواية تجمع بين أدب الرّحلة والسرد الروائي، حيث تأخذ شكل رحلة استكشافية، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي على عناصر سردية وخيالية تجعلها رواية بالمعنى الأدبي. فالرواية تدور حول شخصية أبي زيد العماني، الذي يخوض رحلة مليئة بالتحديات والاكتشافات في أماكن مختلفة. وتتناول الرواية ثيمات متعددة تتعلق بالهوية والانتماء والثقافة، وتراوح بين سرد تجارب حقيقية وعناصر خيالية لخلق تجربة قرائية غنية. فـ "رحلة أبو زيد العماني" هي بالفعل رواية لكنها تحمل طابع الرحلة في سردها، مما يضفي عليها نكهة مميزة تجمع بين الاستكشاف والتأمل.

وغالباً ما تعتبر رواية محمد بن سيف الرحبي أكثر من كونها مجرد "رحلة"، وذلك لأنها تحتوي على عناصر سردية وأحداث خيالية تتجاوز مجرد سرد وقائع رحلة حقيقية. في أعماله، إذ يمزج الرحبي بين الواقع والخيال بطريقة تمكن القارئ من تجربة عوالم جديدة والتفكير في قضايا اجتماعية وفلسفية. ولكن يمكن القول إن بعض رواياته تحتوي على طابع "الرحلة" بمعنى الانتقال أو البحث عن شيء ما، سواء كان ذلك على المستوى الجسدي أو النفسي، مما يجعلها تأخذ طابعاً مزدوجاً بين الرواية والرحلة.

تمهيد:

غني عن البيان أنّ الخطاب الرّحليّ المعاصر أو قصّة السّفر في الأدب العربي يمكن أن يكون خطابًا مركزيًّا جديرًا بالمقاربة والدّرس في إطار اِنفتاح الخطاب الرّحليّ على سرديّات النّصّ وضرورة اِستثمار مكوّنات الحبكة القصصية في الخطاب القصصيّ الرّحليّ، إذِ العلاقة بين مختلف الأجناس الأدبيّة حواريّة (Dialogisme) ومتعددة الأصوات (polyphonie) أو لا تكون، لا سيّما ما تتيحه ثيمة السّفر والاِرتحال من «اِكتساب للمعارف وتحقيق مساحات التّواصل مع الذّات والغير كما أنه يشكّل مدخلاً للدّهشة والكتابة والثّقافة». (حليفي ص٠٤) كثيرا ما تجلت في النصوص القصصية ذات الطابع الرحلي.

وقد انتبه النقّاد إلى وجود قاسم مشترك بين مختلف أنواع القصّ المختلفة باعتبارها " نظاما ضمنيّا من الوحدات والقواعد التي تضبط الإنتاج السّرديّ." (Barthes p02) ، ففي مجال القصص ميز "توماشفسكي" (Tomashevsky) في ترتيب العناصر الموضوعية بين نوعين يختلفان في درجة خضوعهما لمبدأ السببية: الأول يسود المؤلفات القائمة على الحبكة كالرّواية والملحمة والقصة، والثاني يسود المؤلفات الوصفية غير القائمة على الحبكة كالرّحلة.

وينبّه "توماشفسكي" إلى أنّ الحكاية (أي مادة القصة) تتطلّب في آن واحد العنصر الزمني والعنصر السّببي. ونزعم أنّ الرّحلة توفّر العنصر الزّمني والعنصر السّببي: توفر العنصر الزمني أي تتخذ شكل متوالية زمنية، إذا تناولت حكايتها مغامرات الرّحالة (الشّخصية)، أما إذا اقتصرت على عرض الانطباعات فإنها تتحوّل إلى قصة بلا حبكة. (مارس ص٧) هذا التداخل والتشابك بين الأجناس الأدبية هو الذي حفّزنا للنظر في نصّ سرديّ عمانيّ للكاتب "محمد بن سيف الرحبي" عنوانه "رحلة أبو زيد العُماني" (الرحبي ٢٠١٣) ، وسنُحاول من خلاله تدبّر العلاقة بين خطاب الرّحلة والرّواية، وكيف أنّ الرّواية يمكن أنْ تتضمّن رحلةً حتى أنّنا أصبحنا – مع شيوع هذا النوع من الكتابات الرّوائية ذات الطّابع الرّحلي –نتحدث عمّا يمكن تسميته بالسّرد الرّحلي– أو روايات الرّحيل. تلك هي الإشكالية الرئيسة في هذا المبحث وسنحاول مقاربتها والنظر فيها معتمدين على بنية الرواية وانفتاحها على غيرها من فنون الكتابة ولا سيما فنون الرحلة.

أولا: في علاقة النص الرحلي بغيره من الأجناس:

يمكن القول أن النص الرحلي هو نوع من الأدب الذي يركز على سرد تجارب السفر والاكتشاف، ويتميز بوصف الأماكن والثقافات والعادات والتقاليد التي يواجهها الكاتب خلال رحلاته، ذلك أنّ هذا النوع الأدبي يرتبط ببقية الأجناس الأدبية بطرق متعددة ويحاورها (الرشيدي ص١١٤)، ويمكن النظر إلى هذه العلاقة الحوارية بين الرحلة ومختلف الأجناس الأدبية من عدة جوانب:

١-التداخل مع السيرة الذاتية:

النص الرحلي غالبًا ما يكون قائمًا على تجارب شخصية، لذا يشترك مع السيرة الذاتية في تقديم منظور ذاتي للأحداث والأماكن. يمكن أن يتناول النص الرحلي حياة الكاتب بشكل غير مباشر من خلال وصف تجاربه في السفر (ميهوب ص١٨).

٢-التداخل مع الرواية:

يمكن أن تحتوي النصوص الرحلية على عناصر سردية وقصصية مشابهة لتلك الموجودة في الروايات، مثل الشخصيات والأحداث. الفرق الرئيسي هو أن النص الرحلي يميل إلى أن يكون غير خيالي، بينما الرواية غالبًا ما تكون خيالية.

٣-التداخل مع الأدب الجغرافي:

النص الرحلي يقدم وصفًا تفصيليًا للأماكن والبيئات الطبيعية، مما يجعله قريبًا من الأدب الجغرافي. يستخدم الكتاب الرحليون أوصافًا دقيقة للطبيعة والمعالم الجغرافية التي يزورونها.

٤-التداخل مع الأدب الأنثروبولوجي والاجتماعي:

النصوص الرحلية غالبًا ما تتناول دراسة العادات والتقاليد والثقافات المختلفة، مما يجعلها تقترب من الأدب الأنثروبولوجي والاجتماعي. الكاتب الرحلي يقدم تحليلات وملاحظات حول المجتمعات التي يزورونها (الكماري ص١٥٠).

٥-التداخل مع الشعر:

في بعض الأحيان، يمكن أن يكون للنص الرحلي نغمة شعرية أو يستخدم لغة مجازية وشعرية لوصف التجارب والأماكن، مما يقربه من الشعر.

٦-التداخل مع المقالات الصحفية:

بعض النصوص الرحلية تُكتب بأسلوب يشبه المقالات الصحفية، خاصة تلك التي تتناول أحداثًا معاصرة أو تقدم تقارير إخبارية من مناطق معينة.

٧-التداخل مع الخيال العلمي والفنتازيا:

على الرغم من أن النص الرحلي يرتكز على الواقع، إلا أن هناك بعض النصوص التي تمزج بين الرحلات الواقعية والعوالم الخيالية، مما يخلق نوعًا هجينًا يجمع بين النص الرحلي والخيال العلمي أو الفنتازيا (بالنور ص١١٨).

باختصار، النص الرحلي يتفاعل ويتداخل مع العديد من الأجناس الأدبية، مما يجعله نوعًا متعدد الأبعاد وغنيًا بالتجارب والمعاني.

ولا شك أن تقنية الارتحال قد لعبت وظائف متعدد في توجيه العملية السردية في مختلف النصوص القصصية وسنعمل من خلال هذه الورقة العلميّة هذه أن ندرس حضور الخطاب الرحلي في السرد الرّوائي العماني من خلال نماذج روائية وسبيلنا إلى ذلك رواية «رحلة أبو زيد العماني" لمحمد بن سيف الرحبي لما لمسناه في هذه النصوص الروائية من حضور مكثّف للحواس لعل حاسة البصر تعد أبرزها في علاقة الراوي بشخصياته.

وغني عن البيان أن البحث في الفعل الارتحالي في النص الروائي يعد في اعتقادنا من أهمّ المحاور التي استقطبت اهتمام الدّارسين خاصة في النصوص الشعرية لكننا لاحظنا غيابا يكاد يكون كليا لمقاربة مختلف الآليات في النصوص السردية ومن هنا تتأتى أهمية هذا المبحث لما فيه من مقاربات طريفة تتصل بفعل الرحلة وأثرها في توجيه العملية السردية.

فكيف يمكن للخطاب الرحلي باعتباره فعلا به تتحقّق ذوات الشخصيات القصصية وكينونتها وهي في نفس الوقت وسيلتنا لمعرفة العالم الواقعي إذ تنقل لنا الرحلة ما هو متعلق بهواجس الشخصيات ومشاعرهم والغايات التي ينشدونها لذلك آثرنا أن نبحث في علامات حضور الرحلة في الرواية العمانية والوقوف عند مبرّرات تميّزها وتفرّدها أي ما الّذي يميّز حضور الراوي المميز

حتّى استحالت الرحلة في هذه الرواية هيئة مخصوصة في الكتابة وطريقة في الكتابة الرحلية نزعم أنّ لها خصائص تميّزها عن غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى

وسنحاول الدّفاع عن موقف مفاده أنّ الرحلة على اختلافها واقعية أم تخييلية، تسعى إلى تحقيق التّكامل ومواجهة الاختلافات بين الفنون والتّخصّصات الأدبية المختلفة للوصول إلى وحدة المعرفة المتكاملة والأكثر شمولا وننتهي إلى نتيجة مفادها أنّ الحاجة إلى البحث في علاقة الأجناس الأدبيّة بالرحلة أصبح اليوم أقوى من أيّ وقت مضى إلاّ أنّها تظلّ قاصرة على الخروج بنتائج مهمّة ما لم توظّف التّوظيف الصّحيح الّذي يتوافق والموضوع المدروس.

ثانيا: آليات الخطاب الرحلي:

١ – السارد الرائي في الخطاب الروائي:

يزعم أغلب المنظّرين لفن السرديات الحديث الذين تناولوا فنّ السّرد في القصص على تنوع منابعه أو فنون الكتابة في الرّواية العربيّة الحديثة ولا سيّما في الرواية العمانية أنّ النّصّ القصصيّ والرّوائيّ على وجه الخصوص ينهض أساسًا على مجموعة من المكونات السردية التي تؤسس لجمالية سرد الأحداث القصصية لعل أبرزها مركزية الذات الساردة للحدث القصصي هذه الجمالية السردية مأتاها أن سبل التلقي للحكاية يجب أن يمر حتما عبر الأعوان السردية الذين ينهضان بوظيفة القص وعملية التلقي للفعل السردي وسبل تأويله وتلقيه، إن سارد الحدث القصصي يمكن اعتباره بمثابة القطب الرئيسي الذي تتأسس حوله مختلف الأحداث القصصية بل أنه من وجهة نظر قرائية يعتبر ذلك الوسيط السردي بين النص والقارئ فييسر عملية التلقي ويتيح مجالات واسعة للتأويل (الحمودي ص١٧) لذلك لا مناص لنا في هذه الدراسة من الاعتماد على المنهج الإنشائي التأويلي الذي ينهل من البنيوية ويؤسس للتأويل القرائي لمختلف النصوص على تنوعها واختلافها ذلك أنّ الدّارس لمسألة الرحلة في روايات محمد بن سيف الرحبي يلحظ أنّ بنيتها السّردية وهي تتفاعل لتشكّل نصا روائياً هي بنيةٌ قصصيةٌ تختزل في ثناياها الرحلة بل رحلات متعددة يعثر عليها المتلقي تحمل معني الارتحال والسّفر في آن واحد لما يعتمل داخلها من مقوّمات تركيبية وبنيوية متميّزة محكومة بمقوّمات الرّحلة ومتطلّباتها وآلياتها ناهيك عن الجانب الدلالي الذي يبدو على الأقل أنّه موحّدٌ بل هو منفتحٌ على عوالم متعددّة تروم الشّخصيّة القصصيّة الارتحال إليها فهي عوالم لا متناهية في المكان والزّمان يعمل القارئ المتعدّد الثّقافات على بلوغها ومعرفة قصديتها بحكم تكوينه ومعارفه وثقافته؛ فالرّحلة رمزٌ وإيحاءٌ في عبارات تبدو محدودة إلى درجة تصبح معها الرّحلة في نص الرحبي مجازاً أو استعارةً تتّصل بالذّات حيناً وبالآخر أحيانا أخرى، والثّابت لدينا أنّ الخطاب

السّرديّ في هذه الرّوايات موضوع الدّراسة محكوم بنمط مخصوص في إنجازه وتقديمه للأحداث؛ إذ ينهض أساساً على بيان مسار الرحلة ورمزيتها وإحكام بنائها وهو ما يجعل الدلالة في النص الرحلي دلالات متعدّدة تتنوّع بتنوّع القرّاء وتنوّع معارفهم وثقافاتهم ولعل ذلك ما أهّل هذه الروايات أنْ تكون نماذج لأفضل ما يقدم الإبداع العربيّ ولا سيّما في الإبداع الرّوائيّ العُمانيّ.

والخطاب السّرديّ في روايات محمد بن سيف الرّحبيّ هو كناية عن مجموع الكلام الذي يؤلف نصاً روائياً وذلك من شأنه أنْ يُيسّر التّواصل بين السّارد للحدث القصصيّ من ناحية والمتلقّي العضويّ من ناحية ثانية، على أنّنا نعتبر أنّ الأساسيّ في هذا الخطاب السّرديّ ليس ما يُروى من أحداث قصصيّة (ماذا قال) بل الأهميّة الكبرى تكمن في هيئة الكتابة وطرائق تشكيل الجملة السّرديّة فيها (كيف قال). فكلّ مُنجز روائيّ في اعتقادنا يتميّز ويتفرّد بطريقة تصريف الجملة النّحوية فيه وإخراجها على طريقة مخصوصة فيحدث ذلك التّفاعل والتّوتّر بين مختلف الوحدات السّرديّة في النّصّ الرّوائيّ بإعتبار أنّ هذا النّمط من الجمل يمكن أنْ يحدث معنى تامّا في صلب الكتابة الروائية، ولعل طرائق السّرد في روايات محمد بن سيف الرحبي من خلال رواياته المذكورة سلفاً وكيفيّة تقديم السّارد للأحداث القصصيّة فيها لا تخرج عن هذا الإطار.

٢- العتبات ودورها في التخييل في رحلة أبو زيد العماني:

العتبات النصية في رواية الرحبي هي المكونات والعناصر التي تقع على حافة النص الرئيسي وتساهم في تشكيل استقبال القارئ وفهمه للعمل الأدبي. وتشمل العتبات النصية العديد من العناصر التي قد تبدو ثانوية، لكنها تلعب دورًا هامًا في بناء السياق وتوجيه توقعات القارئ. فالعتبات النصية في الرواية يمكن أن تشكل جزءًا لا يتجزأ من التجربة الأدبية لدى محمد بن سيف الرحبي، حيث تساهم في توجيه فهم القارئ وإعداده للتفاعل مع النص ورحلته.

تتنوع الحكايات في هذه الرّواية فتتنوع تبعا لذلك هيئة الرّحلة وهوية الراوي والمتلقي في آن واحد بحكم تناسل الحكايات وأخذ بعضها برقاب بعض وتفرعها في نفس الوقت الذي تتّفق فيه هذه النّصوص في الحضور المباشر للسّارد في مختلف الخطابات القصصيّة، بل يقع تقاسم الخطاب السّرديّ في بعض الرّوايات على سبيل التّداول في عمليّة الحكي كما هو الشأن في رواية "رحلة أبو زيد العُماني" إذ بُنيت الرّواية على التّداول السّرديّ تجسيداً لتحاور صوتيّ وتعدّد سرديّ وسم الرّواية بتعدّد الأصوات فيها فكأنّنا بذات أولى تقول سرداً وبذات ثانية تردّ عليها. « وقف الجمل، وزغردت النسوة، وأطلق الرجال الرصاص في الهواء ابتهاجا، تساءلت هل يستدعي فض غشاء البكارة كل هذه الفرحة والضجيج؟ ولو لم يجده العريس هل سيشعروا كل هؤلاء أنهم قد خدعوا ؟ وأن الفرحة التي عاشوها قبل قليل كانت خدعة أنثوية إذن سينتقمون على طريقتهم لن يسمح

هؤلاء الشجعان لإمرأة أن تخدعهم ولو بتصرفها في غشائها لكن من قال إن هذا غشائي الخاص منذ خرجت من بطن أمي تم تسجيل هذا الغشاء باسم كائن ما في المستقبل أقدمه له في طقوس الليلة الأولى» (الرحبي ص٣٩).

تعد عتبات النص الروائي مداخل أساسية للولوج إلى العالم الروائي الذي ينشده الكاتب وهو ينجز نصه ويحبك خيوطه ولعل الغلاف الخارجي للرواية يعد في اعتقادي إحدى المداخل الرئيسية الدالة على بواطن النص الروائي ومعرفة خباياه خاصة وأن القارئ عادة ما يكون تواصله الأول مع الغلاف باعتباره عتبة رئيسية لمقاربة المتن الروائي ومعرفة الخيوط الناظمة له شأنه في ذلك شأن العنوان الرئيسي والعناوين الداخلية والإهداء وبعض الصور الفتوغرافية المتناثرة في ثنايا النص الروائي ولعل أغلب هذه العتبات النصية تشير صراحة إلى الرحلة والسفر سواء أكانت الرحلة فعلية بما تقتضيه من تنقل وتحول في عنصري المكان والزمان أو كانت رحلة معنوية تنجزها الذات الراوية في عالمها السردي لذلك بدا العنوان يشير صراحة إلى الرحلة والرحيل يجسد ذلك ورود لفظ الرحلة فيه «رحلة أبو زيد العماني» في تناص يكاد يكون واضح المعالم مع «سيرة أبي زيد الهلالي (https://ar.wikipedia.org/wiki)» وما يمكن أن تحيل عليه من تنقل بدأ من الجزيرة العربية ليتواصل إلى شمال أفريقيا، إن مثل هذه العتبات من شأنها أن تؤكد أن هذه الرواية هي نص سردي رحلي بامتياز ولا شك أن هذه العتبات النصية بإمكانها أن توجه القارئ نحو مجموعة من الأفكار والدلالات يكون السفر والرحلة أبرز ملامحها كما تحيل على ذلك لوحة الغلاف والعنوان والعناوين الجانبية «صورة العماني المستعد للرحيل المتطلع إلى الأفق البعيد، المكان الذي يقف فيه و يستعد للسفر من جديد إذ يعد هذا المكان وكأنه استراحة المسافر، فصول الرواية وكأنها محطات يصلها العماني الواحدة تلوى الأخرى هي محطات تتالي على شكل فصول مختلفة ومتعددة تطول حينا وتقصر حينا آخر» إن هذه العتبات النصية في روايات محمد بن سيف الرحبي تخفي في ثناياها معالم سيميائية وأشكال ورسومات إحالية في غالب الأحيان بحيث تستحيل هي بدورها خطاباً إحالياً دالاً بدوره على ما في الرحلة من مكونات تتصل بالرحلة والسفر ومكوناتهما .

٣- الرحلة من الغموض إلى الوضوح:

تتراوح الرحلة في نص الرحبي بين الغموض والوضوح فيتناول كيفية تصوير الأدباء لتجربة السفر والتنقل عبر استخدام تقنيات سردية مختلفة توازن بين تفاصيل واضحة ومعروفة وأخرى غامضة وغير محددة (كريشان ص١١٦). ولعل هذا التوازن يمكن أن يعكس حالة الإنسان خلال الرحلة من مسقط إلى القاهرة، أي بين ما يعرفه وما يستكشفه، وبين الأمان والمغامرة.

إن مراوحة الرحلة بين الغموض والوضوح يمكن أن تتيح للسارد في رواية الرحبي تقديم تجارب غنية ومعقدة تمتد إلى أزمنة وأمكنة متعددة، تعكس طبيعة الحياة في القاهرة ومسقط نفسها كمزيج من المعروف والمجهول وذلك من خلال تحقيق التوازن بين هذين العنصرين، إذ يمكن للروائي إنشاء نصوص تثير الفضول والتفكير العميق، وتأخذ القراء في مغامرة فكرية وجمالية تتجاوز حدود المكان والزمان تماما كما هو الأمر في رواية "رحلة أبو زيد العُماني".

وفي هذه الرواية –رحلة أبو زيد العُماني– تُسند مهمّة الحكي إلى الرّاوي الأوّل الذي يبدو مبهما غامضا في بداية المنجز الروائي هامشيا لا يلامس الملفوظ اللغوي عنده خفايا الرحلة ومكوناتها يستعرض عموميات ومشاهد وصفية هي توطئة للرحلة بل لرحلات تتعدد في متون النص الروائي إذ هو البطل الذي يقدم لنا الحكاية على امتداد الفصل الأول والثّالث والخامس ولكنه يغيب ويتلاشى في غيرها من الفصول فلا نعثر عليه، من ذلك مثلاً على النمط الأول ما ورد في الفصل الأول «أحسسنا أنّ أجسادنا تحترق، لم نكن ندرك أنّ الظهيرة هي متعة التوهج، قاومنا العرق الذي تطرده أجسادنا، وقاومنا احتراقنا بالالتصاق أكثر فأكثر، خفنا على ضلوعنا أن تتحطم، يا سيدي حين تكون الرعشة أقوى من الكف لا يمكن التنبأ بالقادم من العشق» (الرحبي ص٥٠) ليعود مسار السّرد القصصيّ في الفصل الثّالث بضمير الأنا المتكلّم:

«أستطيع المشي بملء رئتي هذا الصباح، من سفر الروح إلى سفر الجسد، أقف وحدي مملوءاً بنفسي فقط، اشتريت كومة من الجرائد وكتاب جيب من أشعار نزار قباني لم يكن ضمن مجموعتي، تزودت بإفطاري من فلافل وخبز أو كما يسمونه العيش» (الرحبي ص٤٦).

وتعد رواية رحلة أبو زيد العُماني من الروايات القلائل التي يقع التداول السردي فيها بين الرواة هو تداول بحجم الرحلة والسفر لذلك لاحظنا في ثنايا هذه الرواية تدخل راوي جديد لمتابعة عملية الحكي؛ فقد تكفلت الفتاة السارد الثاني بحكاية الفصل الثاني والرابع في توزيع للأدوار بدا مدهشا منذ البداية؛ فهو تناوب سردي شبيه بالرحلة الموازية التي تنهض بها الشخصيات القصصية في هذا النص الروائي فكأن الرحلة هنا تنزع إلى أن تكون رحلة منفردة للسارد الأول والسارد الثاني فكل منهما ينجزها بقناعاته الفكرية ويفصّلها على المقاس اللغوي والمعنوي الذي يريده ويبتغيه.

٤– السارد المخاتل في النص الرحلي:

نقصد في هذه الدراسة بالسارد المخاتل ذلك السارد المحايد والسارد المخاتل هو مصطلح يستخدم في النقد الأدبي للإشارة إلى نوع من الرواة الذي يكون غير موثوق به (العمامي ص١٢٤)، حيث يمكن أن يتلاعب بالحقيقة أو يضلل القراء عمدًا أو عن غير قصد. هذا النوع من السرد يضيف تعقيدًا وتشويقًا للنص الأدبي، حيث يضطر القراء إلى التمييز بين الحقائق والأكاذيب (العمامي

ص٧٩)، وتفسير الأحداث والشخصيات بناءً على إشارات ودلائل غير مباشرة. ومن خائصه في النص الروائي التناقضات في السرد، فقد يقدم السارد معلومات متناقضة حول الأحداث أو الشخصيات، مما يثير الشكوك حول مصداقيته. وكذلك الوعي الذاتي للسرد، فأحيانًا يكون السارد مدركًا لتحريفه للحقيقة وقد يشير إلى ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، مما يخلق طبقة إضافية من التعقيد في السرد، كما تكون له النية من وراء هذا التلاعب، فيمكن أن يكون للسارد دوافع مختلفة للتلاعب بالحقيقة، مثل الرغبة في تجميل الذات، أو حماية شخص ما، أو حتى التسلية غير أنه في مقابل ذلك يمكنه التفاعل مع القارئ، ويتطلب السارد المخاتل من القراء أن يكونوا نشطين ومشاركين في عملية تحليل النص واستنتاج الحقائق، بدلاً من الاعتماد على السرد المباشر وهو ما سنحاول رصده في رواة رواية محمد بن سيف الرحبي "رحلة أبو زيد العُماني"

يعمد المؤلف إلى التلاعب بالرواة وينزّل في كل مناسبة الراوي الذي يراه مناسبا لخوض غمار الرحلة ومتطلباتها؛ فتتعدد تبعا لذلك أصناف الرحلة وتتباين مكوناتها وغاياتها، والفتاة باعتبارها الطرف الثاني في المسار الروائي والناقل لقسط كبير من المكون السردي في رواية رحلة أبو زيد العُماني نراها تنزع إلى أن تكون حكاية الأحداث القصصية في الفصل الثاني والرابع حكاية تختلف عن مسار القص في بقية الفصول فتتميّز عنها وتختلف فكان من أبرز نتائج هذا التباين أن جاءت الرحلة في كليتها بمذاق مختلف وتقبّل متميّز قد لا يتفق مع مسار بقية الرحلات الداخلية في ثنايا الرواية.

فلا شك أن «الروائي يبدع راويا يحكي عن نفسه أو عن شخصيات أخرى أو يبتكر شخصيات تروي عن ذاتها أو عن غيرها من الشخصيات الممثلة» (سويرتي ص١٣) ولعلّ ذلك أيضا ما يدفع الراوي إلى تبين هوية الصوت السردي؛ فيعمل السارد على "توجيه السرد بحسب ما يتكون داخل الرواية من أصوات ومن هذه التوجيهات يمكن الالتباس مع الرؤية من يري ومن يتكلم". (محادين ص٢٣)

أنشأ الكاتب في رواية رحلة أبو زيد العماني صوتين سرديين يتناوبان من خلال عملية القص فيظهر واحد ويختفي ليحل محله سارد آخر وكأنه يتخير في كل مناسبة السارد الملائم والمناسب للحدث القصصي الذي يراه هو مناسباً غير أن هذا الصوت السردي لم يكن بارزاً وظاهراً للعيان، بل عمد على إخفائه وراء حجاب فتظهره الأفعال السردية المسندة إلى ضمير الجمع من قبيل:

«تعبنا من الترحال يا سيدي وشواطئنا لا ضفاف لها وإن اللعبة التي لا نملكها حق وأن المتاهة جزء من حاضرنا لكننا لا نعترف أنها ماضينا أيضا» (الرحبي ص٠٤)

أو قوله في مناسبة أخرى «أحسسنا أن أجسادنا تحترق لم نكن ندرك أن الظهيرة هي متعة التوهج قاومنا العرق الذي تطرده أجسادنا، وقاومنا احتراقنا بالالتصاق أكثر فأكثر، خفنا على ضلوعنا أن تتحطم» (الرحبي ص٥).

إن السارد المخاتل هو أداة قوية في رواية الرحبي، فقد سمح له بأن يقدم قصص معقدة ومتعددة الأوجه، وشجع في نفس الوقت المتلقي على التفكير النقدي والتفاعل النشط مع روايته. من خلال التلاعب بالحقيقة والسرد، وهذا النوع لا شك أنه يفتح أبوابًا جديدة لفهم الشخصيات والأحداث والمواضيع التي يتناولها الأدب.

إن الصوت السردي كما تجسد في مختلف فصول الرواية ينزع في كثير من الأحيان إلى التخفي وراء عدد لا متناه من الشخصيات القصصية فيتحدث باسمهم ويحاول قدر المستطاع التخفي فلا يظهر إلا متلحفا برداء الجماعة مشاركا إياهم في أحزانهم كما في أفراحهم.

إن هذه السرديات في الرواية تتفاعل فيما بينها وقد أثرت في السارد/ الكاتب تأثيرا واضحا في إبداعاته وكتاباته كما أيقظت لديه إحساسا بالامتلاء والنشوة والانتماء إلى الإنسانية في أسمى تجلياتها.

لقد حاول الكاتب نقل تمثلاته عن الطريق الرابط بين عُمان والقاهرة، موظفا عدته المنهجية في السرد والوصف ورصيده المعرفي عن المجال، وتقديم معطيات جغرافية واقتصادية ودينية ومعمارية وسياسية قيمة عن الكلية التي درس بها وعلاقاته مع بقية الشخصيات القصصية الأخرى من خلال نقل مشاهداته وأحداث الرحلة خاصة المتعلقة بمختلف علاقاته الإنسانية.

غير أن المتأمل في فصول الرواية يلحظ جليا أن هذه الوضعية السردية لن تتواصل كثيرا على امتداد مختلف الصفحات وإنما سيسعى هذا السارد من حين لآخر إلى الإطلالة بمفرده فيكشف عن هويته ويتحدث بمفرده وعن نفسه فكأنه تخلص من ضغط الجماعة وانتمائه إليهم وهي فترات اعتبرناها فترات تتجلى من خلالها الذات الساردة لتكشف عن مكوناتها وأناها مستقلة عن بقية الشخصيات القصصية هذه المرة ليعود في بقية فصول الرواية الى الاحتفاء من جديد والانزواء وسط بقية الشخصيات لينقل حركتهم وهواجسهم ومشاعرها لذلك كان الحضور مكثفاً لضمير الأنا المتكلم في بقية الصفحات بعدما هيمن ضمير المخاطب وشغل مساحات كبيرة من الرواية كما في قوله بعد الصفحة الرابعة:

«أردت الخروج من داخلي لألبسك أكون في منطقة محمية من الغياب لن أخاف من الغد لن أخاف منك لن أخاف من نفسي أكون أنت ...أرسمك في عمقك أكتبك القصيدة التي أحلم بها» (الرحبي ص٥)

السارد في هذه الرواية ينهض بوظيفة مزدوجة قوامها سرد الأحداث القصصية والمشاركة فيها في آن واحد منذ أول الرواية وحتى آخرها من ذلك مثلا قوله:

"غادرتني فغادرني عمري، غادرني الزمن، في اللحظة التي ألقيت فيها بحقيبة يدك المتوهجة ببهائها على حافة السرير أيقنت أن المكان لم يعد يؤمن إلا بالحواف" (الرحبي ص٨) ويضيف "حين صحوت أدركت أنني في غيبوبة كأنها امتدت ألف عام كانت بقايا دماء تنهل على ملابسي الداخلية لم تكن حولي خيمة ولم تحط بخيمتي صحراء" (الرحبي ص٤٢)

ليتداخل صوت السارد مع أصوات أخرى يصعب تحديد قائلها كما في قوله:

«دخلت أمي غرفتي تبكي هل علينا أن نبكي نحن معشر النساء أنا الشغالة منذ قليل أمي الآن لم أخف أنها ربما تسألني ويتأكد شكي أنها سمعت محادثتي معها» (الرحبي ص٤٢)

فهل هل تمكن محمد بن سيف الرحبي من تقديم متن رحلي روائي يحقق أهدافه؟ وهل هذا المتن يقدم للباحثين ما تقدمه كتب الرحلات الداخلية الأخرى من معطيات مختلفة تلك التي ركز فيها على بعض الجوانب المؤسسة للكتابة الرحلية؟ خاصة وأن رحلته تدخل في رحلة في طلب العلم سيرا على نهج السلف من العلماء، واكتشاف المدن والقرى والمراكز العلمية والمكتبات، والتغرب من أجل اكتساب الكثير من الفوائد، والسهر على التعريف بالعلماء الذين أخذ عنهم مع الحرص على توثيق الرحلة بالصور والوثائق.

لقد جعل محمد بن سيف الرحبي من رحلاته وأسفاره تذكرة لنفسه ولغيره، وبهدف التوثيق، كما كانت رحلته فرصة لاستحضار ذكرياته في علاقته بالمكان وخصوصا بمدينتي الإسكندرية والقاهرة، ونوه بأنه كتب أهم أفكار الرحلة أثناء مزاولته لتعليمه في القاهرة. ومن ثمّ فقد أشاد بأهمية الرحلة داخل مصر وأحوازها وهو ما مكنه من طرح أسئلة متعددة كانت الرحلة والارتحال هي القادح الرئيسي؛ لقد تشرّب الرحبي الرحلة من محكيات أسفاره وتجواله وترحاله، وأيضا من خلال قراءته لنصوص الرحلة المتعددة وصولا إلى فترة التحصيل العلمي في مصر.

الخاتمة:

على عكس ما يتبادر إلى ذهن القارئ النموذجي أن السارد في رواية رحلة "أبو زيد العُماني" لا يعدو أن يكون ساردا عليما ببواطن شخصياته يصرفها أنّى شاء، يعرف عنها أكثر ممّا تعرف هي عن نفسها، فإنّ المتأمل في تحركاته ونظام التلفظ لديه وتوظيفه لمختلف آليات الرحلة في العملية السردية يدرك صراحة أنه سارد محايد أو "متحايد" بامتياز وتلك التقنية كثيرا ما اعتمدها محمد بن سيف الرحبي في مختلف رواياته، إذ لا نعثر على تبرير وتفصيل وتفسير لمختلف الأحداث على مدار الرّواية، بل نجدها حافلة بمختلف النتوءات والفجوات التي يكلف السارد نفسه

للإفصاح عن مكوناتها لذلك عمد الكاتب في مناسبات كثيرة على غرار رواية رحلة" أبو زيد العماني" إلى التغيير من استراتيجية السرد وإسناد المهمة إما إلى سارد آخر أو إسناد مهمة الحكي إلى بقية الشخصيات القصصية.

لقد أنتجت السردية الرحلية التي سلكها محمد بن سيف الرحبي إلى تفكيك خطاباتها والكشف عن جوانب بنيتها العميقة في الرواية. وإلى جانب تلك السرديات، طور الرحبي في السرد أطروحات حول سرديات العالم المتجاورة والمتناحرة على حد سواء، كما قدم تصورات عن رحلات السرديات وتطورها وتفرق استعاراتها بين عدة ميادين بحثية، منها سردية أدبية من خلال البرنامج الشكلاني في مرحلة الستينيات، وسرديات سنوات السبعينيات، التي اتخذت نبرة تحولية من عُمان إلى القاهرة وسردية ثقافية في مجالات مختلفة مثل التربية والتعليم فقد سافر السارد في الرواية طلبا للعلم والمعرفة، ورحلة أبو زيد العماني تؤسس بروز حالة من السرديات المتشظية وجنوح نحو السرديات الهامشية، سرديات الرحالة والمهاجرين والمهجّرين واللاجئين، نزولا إلى السرديات الذاتية، تسجيلية وتخييلية، وهذا ما يفضي إلى الحديث عن سردية الشخصية (أبو زيد العُماني) وهي مزيج لحياة مترحلة وكتابة حياة المبدع المرتحلة، وهو ما دفع عبد القادر السارد إلى التأمل في نظرة استرجاعية لما أنجزه رحلة وانتقالا من عُمان إلى القاهرة، وقد شكلت تجربة الترحل موقعا مهما في سرديته وحكاياته عن القاهرة وأهلها. إن رواية الرحبي قد ضبطت مداخلها الأساسية: الوطنية والموروث الشعبي والأرض وأصالة الإنسان العُماني ولا سيما العربي فمن خلال روايته حاول إعادة كتابة الرحلة كجنس أدبي بحثا عن معنى الوجود لتحقيق الخلود، كما حاول تقمص رحلة الكاتب في الداخل، رحلة تظافر فيها التسجيلي والتخييلي لتقدم ما يشبه صك إدانة لسردية عقل مهووس بالشرق.

المصادر :

-الرحبي. (محمد بن سيف). " رحلة أبو زيد العُماني.". مسقط: بيت الغشّام للنشر والترجمة، ٢٠١٣.

المراجع:

المرجع العربية:

-آيت ميهوب. (محمد). " النص السير ذاتي." النص السير ذاتي. تونس: دار سيرأس للنشر، ٢٠٠٥. ص١٨.
-بالنور (نجوى).. " التخييلي الفانتاستيكي." التخييلي والفانتاستيكي. طرابلس، ليبيا: دار المنار، ٢٠٠٦. ١١٨.
-الحمودي (المختار). " النص والتلقي." النص والتلقي. سوريا: دار دمشق، ٢٠٠١. ص١٧.
-حليفي (شعيب)، الرواية والسفر، تقاطعات التخييلي والتسجيلي، العبور إلى التخييل. منشورات مختبر السرديات، ٢٠١٥.
-الرشيدي. (محمد). "النص الرحلي من الوضوح إلى الغموض." النص الرحلي من الوضوح إلى الغموض. القنيطرة، المغرب: دار الفلك، ٢٠٠٥. ١١٤.
-سويرتي. (محمد). "النقد البنيوي والنص الروائي." النقد البنيوي والنص الروائي. الدار البيضاء، المغرب: مطابع إفريقيا الشرق.

-الكماري (محمد).. " أنثروبولوجيا النص." أنثروبولوجيا النص. الرباط المغرب: دار المعرفة، ٢٠٠٠. ص١٥٠.
-كريشان (فوزي).. " الغموض في النص السردي." الغموض في النص السردي. موريتانيا: دار الأمان، ١٩٩٥.
-مارس. (بلقاسم). " فن الرحلة في الرواية العربية من خلال الأشجار واغتيال مرزوق لعبد الرحمان منيف." صفاقس، تونس: مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.
-محادين (عبد الحميد).. " التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف." التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩.
-نجيب العمامي. (محمد). " الراوي في السرد العربي المعاصر رواية الثمانينات في تونس." الراوي في السرد العربي المعاصر رواية الثمانينات في تونس. صفاقس تونس: مكتبة علاء الدين، ٢٠٠١.

المراجع الأجنبية:

Roland Barthes. "Introduction à l'analyse structural du récit." editions du Seuil ،1973. 02

Sources:

-Al-Rahbi. (Muhammad bin Saif). "The Journey of Abu Zaid Al-Omani." Muscat: Beit Al-Ghasham for Publishing and Translation, 2013.

References:

Arabic Reference:

-Ait Mihoub. (Muhammad). "The Autobiographical Text." The Autobiographical Text. Tunis: Dar Siras for Publishing, 2005. P. 18.

-Balnour (Najwa).. "The Imaginary and the Fantastic." The Imaginary and the Fantastic. Tripoli, Libya: Dar Al-Manar, 2006. 118.

-Al-Hamoudi (Al-Mukhtar). "The Text and Reception." The Text and Reception. Syria: Dar Dimashq, 2001. P. 17.

-Halifi (Shaib), The Novel and the Travel, Intersections of the Imaginary and the Documentary, Crossing to the Imagination. Publications of the Narrative Laboratory, 2015.

-Al-Rashidi. (Muhammad). "The Travel Text from Clarity to Ambiguity." The Travel Text from Clarity to Ambiguity. Kenitra, Morocco: Dar Al-Falak, 2005. 114.

-Suwairti. (Mohamed). "Structural criticism and the narrative text." Structural criticism and the narrative text. Casablanca, Morocco: Africa East Printing Presses.

-Al-Kamari (Mohamed).. "Anthropology of the text." Anthropology of the text. Rabat, Morocco: Dar Al-Ma'rifah, 2000. p. 150.

-Krishan (Fawzi).. "Ambiguity in the narrative text." Ambiguity in the narrative text. Mauritania: Dar Al-Aman, 1995.

-Mars. (Belkacem). "The art of travel in the Arab novel through trees and the assassination of Marzouq by Abdel Rahman Munif." Sfax, Tunisia: Alaa El-Din Library for Publishing and Distribution, 2007.

-Mahadin (Abdel Hamid).. "Narrative techniques in the novels of Abdel Rahman Munif." Narrative techniques in the novels of Abdel Rahman Munif. Arab Foundation for Studies and Publishing, 1999.

-Najib Al-Ammami. (Mohamed). "The Narrator in Contemporary Arab Narrative: The Novel of the Eighties in Tunisia." The Narrator in Contemporary Arab Narrative: The Novel of the Eighties in Tunisia. Sfax, Tunisia: Aladdin Library, 2001.